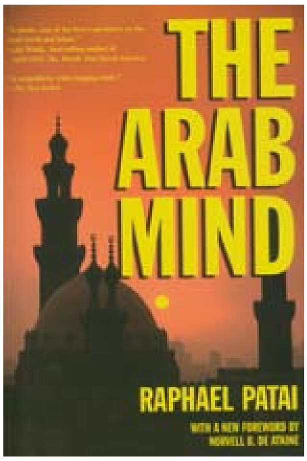

العقل العربي 47

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني عشر
ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

تؤدي مشكلات الهامشية والتذبذب إلى آثار سلبية على الأقلية المتعلمة في العالم العربي. وبشكل عام تترافق ازدواجية اللغة مع الهامشية الثقافية، وكثيرا ما يتسبب هذان العنصران بموقف متذبذب من لغات أوروبا وثقافتها من جهة، واللغة والثقافة التقليدية العربية من جهة أخرى. وبينما ينحصر وجود هذه العناصر الثلاث؛ ازدواجية اللغة، الهامشية، والتذبذب، في الطبقات المتعلمة، والتي ما تزال صغيرة في الدول العربية، فإن أثرها يمتد إلى أبعد من هذه الطبقات ليصل إلى بقية السكان.

1. ازدواجية اللغة (Bilingualism) والشخصية

مثّل الاغتراب عن ثقافة البلد الأصلي صفة مشتركة لدى المثقفين خارج العالم الغربي في مرحلة من مراحل التاريخ، وجنبا إلى جنب مع هذا الاغتراب نما شعور بالإعجاب الشديد، وحتى الانغماس، بثقافات الغرب. وخلال ثلاثة قرون، بدءا من القرن السابع عشر، كانت اللغة الفرنسية مسيطرة على لسان النخبة في بلدان عدة شرقي فرنسا وصولا إلى روسيا. ومع حلول القرن التاسع عشر باشرت اللغة الألمانية بدور مشابه في وسط أوروبا، وإن كان هذا الدور محدودا بالمقارنة مع الفرنسية. وأينما ذهبت اللغة الفرنسية كانت الثقافة الفرنسية ترافقها جنبا إلى جنب مع الأثاث والأزياء والعادات الفرنسية، ودائما ما كان المتلقون لهذه الموجة يبدون جهلا حقيقيا أو مصطنعا بلغتهم الأم وازدراء لها وللثقافة التي تعيش فيها هذه اللغة.

وما أن أشرقت شمس القرن العشرين حتى أصبحت تلك الظاهرة شيئا من الماضي في أوروبا، واستعيض عن اللغتين الوجاهيتين، الفرنسية والألمانية، باللغات القومية

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

التي برزت بسبب الميول القومية الناشئة وانبثاق حركة أدبية وصحافية تتكلم باللغات الأصلية. ولكن جاء الثلث الأخير من هذا القرن ولمّا ينعتق العالم العربي من سلطة اللغات الأجنبية.

ثمة عنصر محدد، ويرثى له في الغالب، يفسر سبب اعتماد المثقفين على اللغة الأجنبية في عدة بلدان عربية، وبالأخص في لبنان ودول شمال افريقيا. أما المثقفين العرب في الأعم فهم يتشاركون إعجابهم وحبهم للغة العربية مع أي ريفي لا يعرف القراءة والكتابة. وفي الواقع، يستأثر تقدير جمالية اللغة العربية وكافة خصائصها الخلابة الأخرى بمنزلة عظيمة لدى المثقفين العرب، وذلك على الأقل لأن المرء يجب أن يكون متعلما وذا ألفة بكنوز الأدب العربي حتى يقدر غناها بشكل كامل. ولا يزال هنالك بين المثقفين العرب من يبدي موقفا معجبا تجاه اللغة العربية تماما كما كان نبلاء روسيا يتصرفون تجاه لغتهم في القرن الثامن عشر. أما اللغة التي أغرت معظم المثقفين العرب في السابق فهي اللغة عينها التي أغرت نبلاء وسط وشرق أوروبا: الفرنسية، ولكن مع وجود فارق مهم؛ وهو أن نخبة شرق أوروبا في القرن الثامن عشر قاموا بالتماهي مع الثقافة الفرنسية بشكل كامل وتحمس شديد، فكانت اللغة الفرنسية عندهم، ودون النظر إلى قيمتها كمؤشر على الحالة التعليمية، تمثل مفتاح الولوج إلى الأسلوب الفرنسي في الحياة، ولم تكن حينها قد ظهرت التوجهات القومية البولندية أو الروسية.

تعد القومية قوة مقتدرة في الدول العربية التي تلعب فيها اللغة الفرنسية الدور السابق، حيث تعتنقها بالأخص الطبقة المثقفة التي تعتقد بتفوق اللغة الفرنسية على العربية، والتي يتقن أفرادها الفرنسية أكثر وربما يصل الحد بهم إلى الجهل بالعربية تماما، بل إن هؤلاء المثقفين العرب الناطقين بالفرنسية عادة ما يتخذون موقفا قويا معارضا لفرنسا، والغرب بشكل عام، عندما يتعلق الأمر بالتوجهات والآراء السياسية. وفي الواقع، وبالأخص في شمال افريقيا، ثمة ارتباط مباشر بين درجة الاندماج الثقافي واللغوي مع الغرب وبين حجم المشاعر المعادية للغرب. وليس للأغلبية العظمى من العرب معرفة بالغرب؛ حيث لا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

يعرفون ما هي ثقافة الغرب، ولا يتكلمون أيا من لغاته، وليس لديهم عداء تجاهه ما عدا ما يحس به معظم المتدينين من كراهية مبهمة تجاه الملحدين في الغرب. وبينما تكون هذه الأغلبية إحدى نهايتي الطيف، تشكل النخبة المستغربة نهايته الأخرى، وهي التي تسمي نفسها بالمصطلح الفرنسي «évolué» (أي الشخص الذي «تطور» من حالة متدنية من الوجود إلى حالة أرقى عبر تبني لغة فرنسا وطريقتها في الحياة)، ومن هذه المجموعة جاء معظم قادة التمرد المضاد لفرنسا في شمال افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ليس من الصعب تخيل الحصيلة النفسية التي يخلقها ذلك التذبذب، فليست هنالك إلا حالات معدودة تتفوق في أثرها على سلامة الشخصية على ما يتسبب به تبوؤ المرء منزلة التابع لثقافة خارجية بينما يمارس في الوقت نفسه كره الشعب الذي أنشأ تلك الثقافة ونقلها وتسيدها دون منازع. ومع ذلك فإن هذه الحالة هي تماما ما يجد الكثير من المثقفين العرب أنفسهم يعانون منها.

كذلك يعتبر الاعتماد اللغوي على الغرب نتيجة وتعبيرا للاعتماد الثقافي الذي تطور في فترة كانت فيها العديد من الدول العربية تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا، حيث كانت المناطق الفرنسية الثلاث في شمال افريقيا عرضة لتأثير السياسة الاستعمارية الفرنسية الساعية إلى تعليم نخبة سكان البلاد الأصليين النطق والتفكير كالفرنسيين. وبعد الاستقلال، شهدت الدول العربية في المغرب وتونس والجزائر اندفاعا قوميا، وكان من مظاهر هذا الاندفاع: التخلص من اللغة الفرنسية كلغة تعليم في المدارس واستخدام العربية عوضا عنها، ولكن ذلك لم يطل حتى بات واضحا أن تلك الخطوة لم تكن عملية، وتمت الاستعانة بنظام تعليمي يعتمد على اللغتين كليهما. إن قصة المشكلة اللغوية في تلك الدول الثلاث طويلة ذات شجون ولها العديد من التفريعات المحلية، ولكنها تتمحور بالكامل حول مسألة أساسية واحدة، وهي: أنه مهما شاء من شاء أو أبى من أبى، فإن اللغة الفرنسية بقيت إلى يومنا هذا لغة الحداثة، وتستعمل بشكل أوسع وأشمل في المجالات الحكومية والجامعية والأدبية في الدول الثلاث.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

علاوة على ذلك، وطبقا لنظام تعليم وطني ثنائي اللغة بدأ العمل به في تونس عام 1958، تستعمل اللغة العربية في تدريس طلاب الصفين الأول والثاني من التعليم الابتدائي، ثم يبدأ تقديم اللغة الفرنسية إلى الطلاب بشكل تدريجي ويتم التشديد عليها شيئا فشيئا على حساب العربية؛ وكان أن نتج عن هذا النظام ظاهرة تمثلت بأن التونسي يزداد ميلا إلى اللغة الفرنسية كلما تلقى مزيدا من التعليم. وأكثر ما لوحظ في هذه العلاقة هو تبوؤ اللغة الفرنسية منزلة اللغة الشعبية في تونس بعد الاستقلال، وهي منزلة لم تكن تحوزها إبان الاحتلال الفرنسي. ونتيجة لذلك اتخذ قرار بتقديم اللغة الفرنسية إلى طلاب الصف الأول الابتدائي عام 1969. لكن ذلك لم يمنع أن يبقى التونسيون يعتبرون اللغة العربية لغتهم الوطنية، ووعاء للشعور الوطني التونسي؛ ولهذا يعتبر معظم التونسيين تعلم عدة عبارات عربية على الأقل أمرا يدعو للفخر، وتكفي هذه العبارة دليلا شديد الوضوح على الغربة اللغوية التي يعيشها التونسي المتعلم بعيدا عن نسيج اللغة العربية. لكن هنالك من بين القادة السياسيين التونسيين من أحس بالمسؤولية في ستينيات القرن العشرين وشعر بأن من واجبه بذل الجهود لنشر اللغة العربية في تونس على مستوى الحكومة والنخب، ولم يخرج هذا السعي عن الإدراك الدائم للدور المهم الذي تلعبه اللغة الفرنسية باعتبارها الحيز الذي يحصل ضمنه التواصل مع العالم على النطاق الأوسع.

وفي هذا المجال كانت رؤية الحزب الدستوري الاشتراكي الحاكم في تونس، وله صحيفة ناطقة بالفرنسية، تتمثل في أن اللغة الفرنسية تتيح لتونس مواصلة إيقاع التقدم من خلال فصلها إلى حد ما عن العالم الناطق بالعربية والأكثر تقليدية؛ وبالضد من هذه الرؤية شجع بعض نواب البرلمان التونسي بشدة على إزالة اللغة الفرنسية بشكل كامل من الجهازين الحكومي والتعليمي، وذلك لأنهم يعتبرون وجود الفرنسية أمرا من بقايا الاستعمار، ولأنهم يشعرون بأن التعريب عنصر مطلوب لشحن الشباب التونسي بالحس الوطني.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وفي الجزائر، جارة تونس، نجد الحكومة وهي تواجه المشكلة ذاتها وتبدي مواقف شبيهة بالمواقف التونسية. فبعد الاستقلال عام 1962، كان هنالك في البداية تصميم عام على التخلص من الفرنسية بأسرع ما يمكن، لكن هذا الحال تغير في منتصف الستينات مع إدراك أهمية استعادة الفرنسية باعتبارها قناة للتحديث، وتلا ذلك إنشاء نظام تعليمي ثنائي اللغة يعتمد على الفرنسية بشكل يتزايد مع تدرج الطالب في المراحل الدراسية. وبمجيء عام 1971، كان هنالك أكثر من مليوني طالب جزائري يتعلم الفرنسية، وهو رقم لم تقترب منه أبدا أعداد متعلمي الفرنسية يوم كانت الجزائر تعتبر جزءا لا يتجزأ من فرنسا. وكما حصل في تونس، ترافقت تلك الزيادة مع أصوات تعالت من الطبقة المثقفة، والتي يجيد أفرادها الفرنسية أكثر من العربية، تدين الآثار التغريبية للغة الفرنسية. وتجب الإشارة هنا إلى حقيقة لا يمكن إنكارها وهي التوسع المستمر للفجوة الثقافية، والتي نتجت عن استعمال لغتين، ما بين النخبة الناطقة بالفرنسية والجماهير الناطقة بالعربية.

ويمكن معرفة المدى الذي وصلت إليه سياسة الفرنسة في أجهزة الحكومة الجزائرية من خلال قراءة القانون الصادر عام 1971، والذي يوجب على كل مسؤول وموظف في الحكومة أن يجتاز امتحانا يظهر المستوى الأدنى من المعرفة باللغة العربية إذا أراد أن يحصل على ترفيع وظيفي. إن من يقرأ هذا النص دون أن يعلم بأن اللغة العربية هي اللغة الأصلية للجزائر، فسيخيل إليه بأن الحكومة التي أصدرت القانون تؤكد على أن يتقن هؤلاء لغة أجنبية، وهي اللغة العربية، إلى جانب لغتهم الأم.

وفي المغرب، أيضا، أدى البدء بتنفيذ الالتزام بالتعريب بعد الاستقلال إلى منهج ثنائي اللغة. ففي عام 1966، أعلن وزير التعليم المغربي أن عملية التعريب وصلت إلى طريق مسدود بسبب الحاجة إلى أساتذة عرب كفوئين للتعليم في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وصدرت تعليمات رسمية بإبطاء العملية. ولاقت هذه الخطوة معارضة شديدة من حزب الاستقلال واتحاد العمال المغربي، أكبر نقابات العمال في المغرب؛ لكنها حظيت بدعم كبير من رئيس الوزراء أحمد لاراكي ووزير الشؤون الإدارية عام 1970.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

هنالك مؤشرات تدل على أن التغرب الثقافي ينمو عند مستوى القرية، كما يمكن أن يعد نتيجة للتعليم ثنائي اللغة في المرحلة الابتدائية. هذه النتيجة يمكن أن تستخلص بوضوح من استطلاع أجري في قرية (تاجروين) التونسية؛ فهذه القرية تتكلم العربية العامية طبعا، وبلهجة تختلف بشكل كبير عن اللغة العربية الأدبية أو التقليدية التي تستعمل في المناهج الدراسية؛ أما الفرنسية فهي، إلى جانب تعليمها في المدارس، تخترق أجواء المنزل من خلال الراديو والتلفزيون، وتستعمل في الأفلام. وكنتيجة لهذه التأثيرات، يدرك الآباء أن معرفة اللغة الفرنسية شرط ضروري لنيل وظيفة جيدة.

يتلقى الأطفال خلال السنتين الأوليين في مدرسة القرية خمس عشرة ساعة دراسية في الأسبوع، وكلها باللغة العربية. وبدءا من الصف الثالث يتزايد عدد تلك الساعات إلى خمس وعشرين، عشر منها بالعربية والباقي بالفرنسية. ولا يتعلم الطلبة من العربية إلا الشيء اليسير بعد الصف الخامس أو السادس. ويتطلب امتحان استيعاب القراءة في الصف السادس أن يتمكن ثلث الطلبة من فهم قراءة صحيفة عربية، وأن يستطيع نصفهم المحافظة على هذه القدرة، ومعظم طلبة الأرياف لا يتابعون الدراسة بعد هذا الصف.

يعتبر الإلمام باللغة الفرنسية مفتاحا أساسيا لفتح أبواب المكانة الاجتماعية والمسؤولية السياسية التي يوفرها التعليم العالي. ومن لا يحسن الفرنسية يصنف نتيجة لذلك في طبقة أدنى. كما يتحدد النجاح في مرحلة التعليم الثانوي تبعا لأداء الطالب في اللغة الفرنسية دون العربية، وإن لم يكن هذا واقعا على صعيد درجات الطالب، فهو متحقق في إدراكه. ونتيجة لهذا: يرتبط الارتقاء في السلم الوظيفي أو التعليمي بإتقان الفرنسية لا العربية؛ ففي الجامعات لا يستطيع الطلبة الذين لا يتقنون الفرنسية أن يكملوا تعليمهم.

وفي الاستطلاع السابق نجد عددا من الاختلافات المهمة بين من يجيد الفرنسية من الطلبة ومن لا يجيدها. وهؤلاء الذين يجيدونها، وهم أقلية، لا يبدون ميلا للمشاركة في

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

الأنشطة الجماعية، وينكرون وجود أي تأثير لآبائهم عليهم، وكلما كان تأثير أقربائهم أخف، كانت أداؤهم في الفرنسية أفضل. ولهذا: كلما زاد شعور الطالب بالعزلة، ارتفعت معدلاته في امتحانات القراءة والاستيعاب باللغة الفرنسية. ويجب أن نضيف هنا بأنه كلما ارتفعت المنزلة الاجتماعية الاقتصادية لأسرة الطالب، ارتفع مستوى أدائه الدراسي في مجال اللغة الفرنسية. إن كل ما سبق يؤيد الافتراض القائل بأن مجيدي الفرنسية هم أعضاء معزولون في المجتمع.

ومجتمع القرية نفسه يعاني من الانقسام الثقافي الذي يتعزز من خلال السياسة التعليمية المتبعة، ولهذا الوضع عواقب أكثر خطورة. فمن المفترض أن من يحسن الفرنسية من طلاب الريف سيلتحق بالتعليم الثانوي، وربما بالجامعة بعد ذلك، لينضم بالنتيجة إلى صفوف نخبة المدينة؛ وإن صح هذا الافتراض، فإن نخبة المدينة تتزود بالتحديد من أبناء الريف الذين يشعرون بالعزلة منذ الطفولة عن بيئتهم القروية، وهي تجربة تقدم أحد العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى تعالي النخبة المدنية على أهالي الريف. وهكذا يقوم الانشقاق، والذي نشأ بالأساس عن أعمال أولي الأمر في المدينة، بالمساهمة في تعميق الفجوة الثقافية الفاصلة بين النخبة المدنية وأهالي الريف.

يمكن العثور أيضا على نمط ثان من ازدواجية اللغة في جميع أرجاء العالم العربي، وكما هو حال الازدواجية العربية-الفرنسية والعربية-الانكليزية، لهذا النمط عواقب نفسية مهمة؛ وهو النمط الذي ينشأ عن التعايش ما بين العربية الفصحى ولهجاتها المحلية في كافة الدول العربية. فالفصحى تكتب بها الكتب والصحف والمجلات، وهي اللغة التي يحاول المتعلمون استعمالها في إنشاء الخطب والمحاضرات، والتي تستعمل في المسرحيات والأفلام الجادة إضافة إلى نشرات الأخبار التي تبث عبر التلفزيون والراديو. وتتصف هذه اللغة بأنها واحدة أينما توجهت، ما عدا بعض الاختلاف في نطق الحروف بين سوريا ومصر. لقد وضع القرآن أسس العربية الفصحى وقواعدها النحوية، وبقيت مفرداته دون تغيير حتى في الأدب الحديث الذي يوظف خزينا غنيا من المفردات تطور عبر مئات

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

السنين. وبفضل العربية الفصحى، أمكن للكتاب أو الصحيفة المطبوعة في جزء من العالم العربي أن يقرأ ويستوعب في باقي الأجزاء بالسهولة ذاتها التي تقرأ بها الأعمال المطبوعة محليا.

لكن، وهنا تكمن المشكلة، لا يفهم الفصحى إلا من درسها أو اكتسبها بعد ممارسة طويلة متكررة. أما الأميون، وهم أغلب سكان العالم العربي، فهم يتكلمون لهجة عامية تختلف عن الفصحى إلى حد يجعلها تبدو لغة أجنبية بالمقارنة معها. ولا حاجة للقول هنا بأن اللهجات العربية المتنوعة تختلف أيضا عن بعضها البعض إلى حد يجعلها عصية على الفهم كلما بعدت المسافة الجغرافية بين اللهجتين. وهذه الاختلافات، سواء أكانت بين الفصحى والعامية، أم بين اللهجات العامية، تحدث على كل من مستويي المفردات والنطق الذي يختلف بشدة عند اللفظة الواحدة.

إن الأميين قد لا يتمكنون من فهم نشرات الأخبار التي تبثها عاصمة الدولة التي يعيشون فيها، وربما يفهمونها بشكل جزئي. وبما أنهم غير قادرين على الكتابة أو القراءة، فلن ينزعجوا من مشكلة عجزهم من فهم الأدب العربي والصحف. إنهم يمتلكون لغتهم الخاصة التي تكفي لتلبية حاجاتهم جميعها، والتي لا يعرفون غيرها باستثناء عدة آيات من القرآن بالفصحى تجعلهم يعون وجود لغة أدبية تختلف بشدة عن لهجتهم؛ ولهذا فهم لا يعرفون شيئا عن المشاكل التقنية التي تنشأ من ازدواجية اللغة.

من الجانب الآخر، يعيش المتعلمون طيلة أيام حياتهم في عالمين تسود كل منهما لغته الخاصة: الأول عالم أسرهم وأصدقاء طفولتهم، عالم العمال وأصحاب المتاجر وأغلب الناس، وهي شريحة يخاطبها المتعلم بلهجة عامية هي اللغة الوحيدة التي يعرفونها ويعرفها عندما كان صغيرا، وهي اللغة التي يتمكن باستخدامها من أن يعبر عن نفسه بيسر، والتي يفضل استعمالها في حالات التوتر العاطفي.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

أما العالم الآخر فهو عالم العربية الفصحى التي لم يكتسبها دون عناء خلال السنوات التي أمضاها في المدرسة. وحتى في صفوف المتعلمين من العرب نجد أن معرفة الفصحى تتأتى بشكل أساسي دون دافع شخصي؛ فهم يعرفونها بما يكفي لفهمها والتمتع بها والاستسلام لتأثيرها الجذاب؛ ولكنهم لا يتقنونها بما يكفي للتحدث بها بطلاقة، ناهيك عن البلاغة والتحسب من الوقوع في أي خطأ يتعارض مع قواعدها الدقيقة على مستوى النحو والأسلوب؛ ومع ذلك؛ فهم واعون دائما بوجود الفصحى، وفخورون بأي مستوى من الطلاقة يصلون إليه، ويشعرون بالانحدار عندما يستعملون العامية. ومن جهة أخرى هنالك من يحس بأنه يقوم بشيء من التصنع عندما يستخدم الفصحى بطلاقة، فالممثل عندما يقول فوق خشبة المسرح: «أنا أحبك» بالفصحى، فإنه يلجأ إلى ألفاظ وأساليب تختلف بشدة عندما يريد التعبير عن حبه خارج المسرح.

ولتعقيد الأمور أكثر، يجد الكثير من المتعلمين العرب صعوبة شديدة في الحفاظ على الجهد العقلي اللازم لاستخدام الفصحى في أية مدة من الوقت. وفي الواقع، تعتبر القراءة بصوت مرتفع المناسبة الوحيدة التي تستخدم فيها الفصحى اللفظية لمدة من الوقت. وفي الكلام المرتجل نجد خلطا للفصحى مع الكثير من خصائص العامية، بل إن هنالك من الخطباء من يتنقل ما بين الاثنتين حتى في الجملة الواحدة. وفي الخطابات الشعبية للرئيس المصري جمال عبدالناصر أمثلة معروفة عن هذا الخلط، وإحدى هذه الخطب التي تم تحليلها وفق هذه النظرية بدأت بالطريقة التقليدية، لكنها انتقلت إلى العامية بعد ثلاث جمل، ثم تحولت إلى نوع معدل من الفصحى، ثم عادت إلى التقليدية، ثم العامية، وهكذا إلى نهاية الخطبة.

ويكثر في التحاور أن يستخدم أحد الطرفين الفصحى، ويجيبه الآخر بالعامية؛ ولوحظت هذه الظاهرة في مجريات محاكمة رئيس الوزراء العراقي فاضل الجمالي في بغداد، أغسطس 1958. وهذا النوع من التحاور لا يمكن أن يحصل طبعا إلا بين طرفين يعرفان الفصحى، وإلا انقلب الموقف إلى ما يشبه القصة التي سمعتها قديما من موظف في محكمة منطقة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

فلسطين التابعة للانتداب البريطاني؛ حيث يروى أن بدويا أحضر أمام القاضي الذي قال له بالفصحى: «أنت متهم بسرقة عشر عنزات. فهل أنت مذنب أم غير مذنب؟». فما كان من البدوي إلا أن أجابه بلهجته: «أيها القاضي! لا تتحدث معي بالانكليزية. فأنا لا أعرف غير العربية». ولم يكن الموظف الذي روى لي القصة متأكدا إن كان القاضي فهم لهجة البدوي أم لا.

إن المشكلة النفسية الناشئة عن تعايش الفصحى والعامية عند الجماهير غير المتعلمة تختلف عن مثيلتها عند النخبة المتعلمة المثقفة. فتلك الجماهير مع أنها قد لا تعرف الفصحى على الإطلاق عمليا. فإنها دائما تعلم بوجود نسخة أدبية تقليدية من العربية. وأنها نسخة لا يمكنهم التحدث بها. وأنها أرقى من لسانهم العامي. ويشار إلى الكلام الفصيح عند العرب على أنه «نحوي» أي أنه صحيح من ناحية القواعد اللغوية. كما يستعملون مصطلح «الفصحى» و«لغة المتعلمين». أما العامية فيسمونها «البسيطة». وهذه المصطلحات معروفة لدى الأمي والمتعلم وهي تتضمن معنى تقييميا: حيث تنتقص من قدر اللهجات وتعترف بالمنزلة العالية للعربية الفصحى أو التقليدية. وهذا يعني أن غير المتعلم، والذي لا يستطيع «التكلم بشكل صحيح». عليه أن يعتبر نفسه. وفق هذا المعيار وغيره. غريبا عن المتعلم الذي يكون بحكم العادة من ساكني المدن. والأهم أنه شخص لا يلجأ إلى الأعمال اليدوية لكسب عيشه.

من الجانب الآخر. تعاني النخبة المتعلمة من مشاكل نفسية ناشئة عن التعايش مع لغتين. إذ يعلم هؤلاء أن الفصحى أرقى من العامية. وهم مقتنعون أنهم متفوقون على نسبة 90% الباقية من السكان بإجادتهم لها. وهذا الاقتناع يقوي الانتماء للنخبة والإحساس بأن الدولة مدينة لهم بتوفير معاشهم دون تكليفهم بتلويث أيديهم بالأعمال البدنية. وفي الوقت نفسه. يجب على هؤلاء أن يقروا لأنفسهم بأنهم على الرغم من السنوات الطوال التي قضوها في تعلم الفصحى لا يزالون يشعرون بألفة أكثر مع العامية «البسيطة» التي كانت لغتهم الأم. والتي لا يزالون يستخدمونها أكثر من لغة المتعلمين

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

«الجميلة» أو «الواضحة» عند التخاطب مع الزوجة والأطفال والأصدقاء المقربين. إن هذا العامل يقوم بزرع بذور الشك في نفوس هؤلاء تجاه تفوقهم على الآخرين.

وبما أن معظم المتعلمين الذين تلقوا تعليما شاملا في الفصحى قد اكتسبوا شيئا من الإلمام بلغة أوروبية فإنهم يتعرضون بالإضافة للمشاكل النفسية السابقة إلى ما ذكرناه في أول الفصل من مشاكل ازدواجية اللغة. وهكذا فإن شعورهم بالتفوق على الريفيين الأميين يفسده دوما شعور الغربة الذي يحسون به عندما يدركون في نهاية الأمر أنهم اجتهدوا لإحراز تفوق هامشي فقط في إحدى اللغات العظيمة. وأنهم لم يشاركوا إلا بشكل طفيف في إحدى ثقافات الغرب العظيمة.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©